I – مقـــدمـــة :

لا نخـــتلف في أن المدينة نتاج لعمليات وتطورات مستمرة في ميادين مختلفة: إجتماعية، سياســـية، ثقافـــية...وهي منظومات تعبر عن أشكال الحياة العامة فيهامن جهة، ومن جهة ثانية عمليات تمس تصميم وشكل المدينة أو أجزاء منها، أي الفضاء الذي تدور فيه مختلف الأنشطة والممارسات اليومية للحياة. إن تلك التغيرات على إختلافها يمكن أن تظهر في صور من النمو الحضـــري، وهـــو الـــذي يعبر عن تنظيم فيزيائي للفضاء تترجمه أشكال من استغلال الأرض المنظم أو غير المنظم.

المديـــنة تـــبرز مجموعة من العلاقات المتبادلة بين جانبها الفيزيائي المتمثل في المباني، والجانـــب الروحـــي الـــذي يعني سكانها، وأيضا علاقات متبادلة ضمن جانبها الفيزياء بين ما يعـــرف بالفـــراغ المبني وغير المبني، والذي يشكل الإنشاءات المعمارية من منازل وتجهيزات وغـــيرها، فـــي حين غير المبني الذي عبر عنه بمصطلح جديد ظهر خلال القرن التاسع عشر عرف بالفضاءات الحضرية "الفضاءات العامة...عنصر من التركيب الحضري شكل منذ الأزل الرابط العضوي بين المباني كما عبر عن روح المدينة، فلا يمكن تصور المدينة من دونها..." .(Sablet,1988,p7)

المديـــنة فـــي مجملهـــا وعـــبر التاريخ عرفت تطورات تبعا لمؤشرات اجتماعية سياسية اقتصادية،ثقافية... ساهمت في تغيير بنيتها وشكلها وكيفية نموها وتطورها. والفضاءات العامة هـــي الأخـــرى كعنصـــر مهم في تركيبها تأثرت بتلك التطورات، وهذا ما جعلها تحمل أشكالا مختلفة ومتباينة.

أما الدلالات والوظائف التي كانت تحملها في المدن القديمة فلم يبقى على حالها أمام أفكار ومـــيولات العصر الحالي الذي يتسم بالتكنولوجية والتطور في شتى الميادين، وهو الأمر الذي نتجت عنه صورة جديدة للمدينة وفضاءاتها أيضا.

ان التأمل في تاريخ الفكر المعماري سجل حدثا تاريخيا هاما (1933) تمثل في مؤتمر الهندسة المعمارية الحديثة، كرس اهتمامه بالجوانب الوظيفية للمدينة على حساب الجوانب الجمالية والرمزية، فجاء لتغيير المظهر غير المناسب الذي تبديه المدينة، ولحل مشاكلها مع مسايرتها للتطورات السريعة في التكنولوجيا والتعمير، وما نتج عن ذلك من آثار على المجتمع

والمدينة ككل، حيث دعا هذا المؤتمر إلى تصميمات عمرانية ومعمارية حديثة مع تقسيم المدينة إلى أربعة مناطق وظيفية: السكن، العمل، الحركة والراحة وهنا يمكننا تسجيل غياب توجيهات واضحة حول الفضاءات العامة، التي أصبحت تبدو في معزل عن محيطها المبني، وفي >لك كتب (Robert Venturi) قائلا:" ...لقد تجاهلنا الدراسة في الهندسة المعمارية في حين تقبلنا النوعية الوظيفية للمبنى...العمران يأتي من الفضاء ومدلولاته وكذلك من أنماط الحياة الحضرية التي تجري في داخل وخارج المبنى..." (Robert Venturi,1978,p8).

يمكننا الإشارة أيضا إلى تيارات جديدة تنادي بتقسيم المدينة إلى مناطق (التنطيق) (Zoning) وهو الذي جعل تأثر بعض الفضاءات لا يتعدى الحدود المرسومة لـــها،حيث صورها المعماريين ضمن مخططات تفتقر إلى الروح والواقع الاجتماعي مثل: المخطط التوجيهي للتهيئة والتعمير (PDAU)، ومخطط شغل الأرض(POS)، مخططات التجزئة التي تأخذ القيم والتصميمات بدلالات مجالية فتعالج المدينة على أنها إسقاط ذو بعدين يفتقر إلى الروح، فضلا عن أن الفضاءات العامة صارت تحكمها معايير ومبادئ مثل معامل شغل الأرض(COS) ومعامل استغلال الأرض (CES)...،وهي تطبيقات حديثة لم تتجنب التصور التمثيلي للفضاءات ولم تصل لعمق تصور الفضاء العام.

وإن كان شكل ونوعية الفضاءات العامة الهدف الرئيسي للمشاريع، وذلك ببحثا عن فضاءات راقية لها دلالاتها الرمزية والوظيفية، خدمة للحياة الاجتماعية وتلبية لحاجيات مستعمليها، ظهرت العديد من الأبحاث والأعمال تثير اهتماما كبيرا بدلك ووعيا لضرورتها وأهميتها داخل الأنسجة الحضرية، وهو الأمر الذي يتطلب جهود كبيرة وتضافر اختصاصات مختلفة، بإعتبار الفضاءات العامة تضم أشكالا مختلفة، فعلى مستوى المدينة نجد الساحات العامة، الحدائق العمومية، الأنهج...وعلى مستوى الأحياء والتجمعات فنجد الساحات الصغرى أو الرحبات، الحدائق الجوارية، حدائق الأحياء...

حتى لا تضيع بنا في بحثناسنتطرق للساحة لأنها تمثل الشكل الأول في الفضاء الحضري الذي تبناه الإنسان عند ميلاد المدينة.

الساحة وإن اختلفت مفاهيمها وتعاريفها عنت عند الكثيرين ذلك الفراغ الواقع بين المباني، الذي تمارس فيه الحياة الاجتماعية للسكان، ولقد عرفت الساحات أشكالا عديدة كما احتلت مكانة

كبيرة في المدينة وفي ذلك يقول جاكورجفيك نقلا عن بوسانياس (Pausanias):" ...المدينة لا تحمل هذا الاسم ما لم تملك مباني هامة وساحات... "(jakorljevic,1964)

لقد اعتبرت الساحات العنصر المهيكل للمباني الهامة والعامة في وسط المدينة، حيث شكلت منذ القديم المكان الذي يمثل مركز المدينة والذي تتركز فيه المباني الهامة، ويتجلى ذلك في الأشكال الأولى منها كالآقورة(Agora)، الفوروم(Forum)...، كما شكلت الساحة في عصور النهضة المكان الذي تقام فيه مختلف التظاهرات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والدينية، فمثلت بذلك رمزا للحياة الاجتماعية والحضرية في المدينة القديمة.

لقد اكتسبت الساحة قيمتها وجاذبيتها من خلال مورفولوجيتها والخدمات التي وفرتها، وكذلك الممارسات اليومية للحياة الاجتماعية التي احتضنتها من خلال مظهرها الناتج من العلاقة المتبادلة بينها وبين المباني التي تحيط بها، فعبرت الساحة عن الفضاء الذي يحمل رموزا تعبر عن الحرية الاجتماعية والتعايش بين الأفراد، فشكلت بذلك رمزا لتاريخ وثقافة المجتمع عبر تاريخه.

لقد تراجعت الدلالات التي حملتها الساحات قديما أمام أنماط الحياة الاجتماعية والتطورات الراهنة، في كثير من الحالات تحافظ على تلك المكتسبات القيمة إذ تعرف في الوقت المعاصر العديد من المشاكل، في هذا السياق نقل جاكورجفيك عن(Andru Vera) قوله وهو يخاطب المعماريين:"... الإخفاق بين لنا وأفهمنا بأننا لا شيء...الأكثر غالبا يسطرون الساحة ويقدمونها من خلال معالجتها، صورتها تبقى راسخة ليس في العقل فقط ولكن داخل قلب السكان ولا تمحى خلال غياب طويل، فتطرح فقط ليس وزنا وأبعادا لكن أشكالا في واجهات المنازل...أكثر من ذلك تستجيبون إلى حاجة اجتماعية وسياسية وتهيئة شاملة لمكان وإطار الاجتماعات للسكان...أنتم تجدونها كما في العصور الجميلة والرائعة...الدولة ليست مجموعة الأفراد بكونها روح ووعي، ونحن لسنا غرباء عن بعض، نحن سكان ومواطنون هذا ما يجب لكل ساحة أن تجسده ليس فقط بتشكيل مظهرها ولكن أيضا بواسطة عدد الفنانين والحرفيين والدين سنستدعيهم لإنتاج هذا النظام المميز..." (jakorljevic,1964,p13)

لقد نادى هذا الأخير بالدور الاجتماعي للساحة وقدمها على أنها مكان لممارسة الحياة الاجتماعية، باحثا عن شكل لفضاء حضري أكثر حيوية، أمام ساحات أصبحت تبدوا اليوم وفي

الكثـير من المدن عبارة عن مساحات حرة أو ساحات سكنية، فضلا عن أنها تحولت في الكثير من الأحيان إلى فراغات بين المباني تخضع إلى معايير مثلCOS،CES...، أو ربما عبرت عن فـراغات داخل التصميم أو جيوب حضرية في المدينة، ليس ذلك فحسب بل صارت أيضا تمثل جـزء من مخطـطات الحركة في المدينة، إضافة إلى الكثير من المظاهر التي أفقدتها دلالاتها الرمزية ووظائفها المختلفة.

وانطلاقـا مـن هـذه المشـاكل التي تعرفها الساحة، والتطورات على مستوى الوظائف والـدلالات، تشـكل موضـوع البحـث إلى أين يصل الفارق بين التصور الاجتماعي للساحة وتصميمها ؟

II- الإشكاليـــــــة :

مجـتمعات اليوم تعبر عن مجتمعات حضرية، تمثل فيه المدينة ذلك الواقع، حيث أصبحت موضـوع أبحاث متنوعة من بينها الدراسات التي تعالج إشكالية التفاعل بين الإنسان ومحيطه، الـذي يعـبر عـن تركيـبة بيـن فضاءات مبنية وغير مبنية تعرف بالفضاءات الحضرية أو الفضاءات العامة.

فـي الجزائروجدت الساحة منذ القدم في أشكال وحملت (الساحة، الرحبة، ساحة السوق وغـيرها) وعرفـت تغيرات شكلية، نموذجية، وظيفية حسب فترات زمنية من تطور المجتمع الجزائري متأثرة بثقافات محلية وأخرى ذخيلة من فترة الإستعمار الفرنسي.

عرفت الساحة صراعات نظرا للتطورات التي تعرفها المدن المعاصرة والأشكال المتنوعة للتعمير،فجعلها تظهر أشكالا جديدة ومختلفة، أدى ذلك التطورإلى أشكال منها لا تعبر في الكثير من الحالات على مكان للرفاهية والتعايش، كما في بعض الحالات تبدو كفراغات عولجت بشكل غـير مـتكامل مـع المبانـي المحيطةبها، أو الموقع الموجودة فيه، وفي حالات أخرىغزتها السيارات وبعض السلوكات غير المرغوبة، فأصبحت بذلك مكانا للتلوث بكافة أشكاله(الأخلاقي، الاجتماعي...).

إن تراجع قيم ومزايا الساحة سواء على مستوى الأنسجة العمرانية القديمة أين تحولت إلى فـراغات تغزوها السيارات إضافة إلى أنها تبدو في شكل متدهور يكشف عن تهيئة قديمة، أما شكلها لم يعد يتلاءم مع التطورات المعاصرة على مستوى الأشكال الجديدة للتعمير بكل أنواعها

لقد أصبحت التوسعات العمرانية الحديثة مفرغة من الحياة الاجتماعية الحضرية تفتقر إلى الحـيوية والنشاط نتيجة اهتمام السلطات المعنية بالسكن، وهي عملية قابلها عدم إهتمام بالمحيط والفضـاءات التي يحتويها،في حين الساحات داخل التجمعات السكنية المنجزة وفق المخططات العمرانـية الحديثة أصبحت تخضع لقوانين ومعايير مجالية مثل معامل شغل الأراضي(COS)، وهـو الأمـر الـذي يضع تساؤلا كبيرا حول هذه المعايير، وهل هي تعبر عن ثقافة المجتمع وأفكاره ؟ إضافة إلى ذلك نجد هناك قصور واخفاق على مستوى التخطيط أين أصبحت الساحة تمثل حلا بديلا بالنسبة للمساحات المتبقية في التصميم وكذلك الفراغات الواقعة في زوايا صعبة الخـيارات المعمارية، وفي بعض المخططات تبدو الساحة جزء من مخطط الحركة في المدينة كل تلك الجوانب جعلت الكثير من الساحات مكانا فقيرا شكلا ووظيفة ودلالة.

إن المشـاكل التـي تعانـي مـنها الساحة لا تعكس واقعا تصمميا فقط، بل تعكس أيضا تغيرات في الحياة الاجتماعية، فأصبحت صورتها تعبر عن مجالات عمرانية لاتمثل المضمون الإجتماعـي والثقافي للمجتمع ولا تلبي طموحاته ورغباته، كما أن أشكال الاتصال بين الأفراد والجماعـات أخذت وجها حديثا بظهور مباني عامة منافسة للساحة تساهم في ذلك، إضافة إلى ظهـور وسـائل أخرى للاتصال بين الأفراد كالهاتف،الإنترنت...وبذلك أصبحت الساحة تعبر عـن فراغات بسيطة لا تشحن العلاقات الإنسانية بين الإنسان ومحيطه، فضلا عن ذلك انعدمت فيها الحرية الاجتماعية وحتى الأمن، فباتت تستعمل في أوقات محددة ومناسبات قليلة من طرف فئات محدودة من المجتمع.

إن هـذا الواقع الذي آلت إليه الساحة يدفعنا للتساؤل حول العلاقة الموجودة بين العناصر المكونة لهذا الفضاء من جهة، ومستعمليه من جهة أخرى وهذا ضمن المحيط الموجود فيه.

مديـنة المسيلة، مدينة لها تاريخ وللساحة أيضا عمق تاريخي في هذا الفضاء الجزائري، ونظـرا لتصـنيفها تحت صنف المناطق شبه الجافة، وللتنوع الشكلي والوظيفي الذي يبديه هذا الفضاء العمراني (الساحة) بهذه المدينة في صورتيه العمرانيتين الجماعية والفردية المخططتين وكـذا الأنسـجة القديمة، ذلك ما يدفعنا للدراسة لهذه المدينة كنموذج للعديد من المدن بالجزائر تعاني الساحة فيها مشاكل عدة ومعقدة.

إن لوضعية الساحة تشكل تساؤلات يطرحها الملاحظ المعماري أو العمراني وكذا التنفيذ حـــول الأســـباب التي أدت إلى عدم إبراز أهميتهامن ناحية التصميم ؟ وبعبارة أخرى يبدو أن الاهـــتمام بالســـاحات من الجانب التصميمي يأتي في مراتب ثانوية، إذ العديد من الساحات لا تعرف إقبالا ولا استعمالا كالذي عرفته نظيرتها عبر التاريخ.

III- الفرضيات :

للإجابة عن التساؤل المطروح يمكن صياغة فرضيتنا على النحو التالي:

عدم ارتقاء العملية التصميمية للساحة كمنتوج للإستجابة لحاجات المستعمل يفرغها من قيمتها، ويمكن قراءة ذلك على:

- مستوى التصميم والتهيئة وما يتعلق بهما من قوانين وطريقة التصميم.
- مستوى استعمال المواطن للساحات الموجودة وتفاعله معها.

IV- أهداف البحث :

يهدف هذا البحث للإجابة عن التساؤلات المطروحة حول الساحة، ونتوخى البلوغ إلى هدف رئيسي يتمثل في إبراز مدى أهمية الساحات في المدينة، وذلك من خلال:

* معرفة الأسباب التي أدت الى إهمالها وتدهورها، يندرج ضمنه أهداف ثانوية أخرى هي:

* دراسة أنماط من الساحات للتعرف على الجوانب الشكلية والوظيفية للساحات، مع الأخذ بالحسبان إدراك المستعمل لها والصورة التي تعكسه هذه الفضاءات، مما يساهم في فهم المغزى الحقيقي من الساحات وبالتالي محاولة تجسيده.

* الوصول لتوصيات في مجال الإنجاز والتدخل على هذا الفضاء بالنسبة للموجودة أو المبرمجة مستقبلا حتى يتسنى لها خدمة أكبر لمستعمليها، وكذا جعلها جزء لا يتجزأ من مشاريع الإسكان والتصميم الحضري، لتبدى تكاملا مع محيطها وتتوافق مع استعمالاتها.

* استجلاء العوامل المؤثرة في سلوك المستعمل داخل الساحة والعلاقة التأثيرية المتبادلة.

* تحديد معايير قياسية للساحة لغاية استخلاص تقييم لها حسب التصميم وكذا حكم المجتمع على أهميتها وضرورتها.

V- المنهجية:

إن طبيعة الموضوع يحتم علينا المنهج الوصفي التحليلي كمنهج عام لبحثنا هذا حيث نقوم بتحلـيل تمركـز السـاحات علـى مستوى المدينة شكلا وظيفة وتأثيرها على محيطها وتحليل الأسباب التي أدت إلى ذلك.

VI- التقنيات المستعملة:

بناء على المنهج المختار سوف يتم إعداد التقنيات المناسبة لهذا المنهج والتي سوف تشكل عونا في البحث وهي:

1. **الملاحظـة:** تعتـبر الملاحظة تقنية ذات فوائد كثيرة، إذ تعطي لنا مجالا لوصف الساحات العامـة (حالتها، وظيفتها، المشاكل الناتجة عن غيابها أو عدم تهيئتها...) وتتم الملاحظة العلمـية إما بالمشاركة أو بدونها، وسوف نستخدم الملاحظة البسيطة بإعتبارها تمكننا من وصف وتصنيف وتحليل الحقائق والمعلومات التي نريد الحصول عليها.
2. **العيـنة:** تـبعا لطبيعة بحثنا ولفرضياته سوف نقوم باختيار العينة العشوائية البسيطة حيث سـوف نخـتار جزءا من مستخدمي الساحات العامة على اختلاف أعمارهم ومستوياتهم وأجناسـهم.أمـا عيـنات الساحات فسيتم اختيارها حسب الاختلاف في المظهر والشكل والموقع وكدا زمن إنشاؤها.
3. **الاستمارة الاستبيانية:** بعد تحديد العينات وأطرها واختيار الطريقة المنتهجة لجمع البيانات الميدانـية نقـوم بناء على ذلك بتصميم الاستمارة الاستبيانية، ولقد اخترنا هذه التقنية لأن الفرضـية السوسيو- فضائية المسطرة في بحثنا تحتاج إلى هذا النوع من التقنيات للتأكد منها حتى يتسنى لنا تحليلها من جهة، ومن جهة ثانية سنعمد لإستخدام المقابلة في البحث والتأكـيد علـى بعض المعلومات والبيانات التي يمكن الحصول عليها من الاستمارة أو الملاحظة.
4. **الوثائق من المخططات:** التي تساعد على تحديد وتفقد واقع هذه الأماكن والصور التي تكمل الملاحظات وتساعدنا في التحليل.

VII- محتويات الفصول: قسمنا بحثنا هذا إلى قسمين رئيسيين: النظري ويضم أربعة فصول والجزء التطبيقي الذي يحوي فصلين، تبع كل فصل بخلاصة واختتم البحث بخلاصة عامة،ولقد جاءت الفصول كالآتي:

الفصل الأول:

ويضـــم جزأيـــن،الأول يتناول عرض مفاهيم عامة تتعلق بالساحة العامة موضوع البحث، إضـــافة إلى عناصر أخرى تتمثل في الفضاءات العامة في المدينة والمكونات الأخرى لها، مع الوصول إلى تقديم مفهوم واضح للساحة،

أمـــا الجـــزء الثانـــي فيعرض الساحة حسب فترات تاريخية مختلفة، حيث تم ذكر أهم ما تميزت به الساحة حسب كل فترة، وكذلك تأثرها بالظروف التي تحيط بكل مجتمع وحضارة.

الفصل الثاني:

يتـــناول هـــذا الفصـــل قراءة مجالية للساحات في المدينة، ولقد جاء هذا الفصل في ثلاثة أجـــزاء، الأول يقـــدم قـــراءة للســـاحات فـــي المديـــنة، ويحـــتوي الجزء الثاني على دراسة تيبومورفولوجـــية للســـاحات، ذاكرين فيه مختلف الوضعيات والأشكال للساحات العامة، إضافة إلـــى علاقتها بالمباني وكذا مكونات فضائية أخرى، أما الجزء الثالث فتضمن مختلف تصنيفات الساحة في المدينة وذلك وفق ثلاث معايير: المنشأ،المظهر والشكل،الوظيفة.

الفصل الثالث:

ويتمحور حول الأدوار والتطبيقات المختلفة للساحة، ولقد عرض في أربعة أجزاء، الأول يقدم مختلف الأدوار والوظائف التي يمكن للساحة أن تقدمها للمستعمل، حيث تم إدراجها ضمن أربعة طموحات يرجوها المستعمل: نفسية، اجتماعية، اقتصادية، التنقل والحركة، هذه الجوانب تتطلـــب عمل متكامل من المختصين للبلوغ إلى تحقيقها بشكل أفضل، لذلك تم تقديم مجموعة مـــن المتدخلين يمكنهم الإسهام في إعداد الساحة، وهذا ما شكل الجزء الثاني من الفصل، بينما يتـــناول الجـــزء الثالث الاستعمالات المختلفة للساحة، والتي يأخذها على أنها ميدان عام يمكن اســـتعماله من طرف العامة أو الخاصة، جماعات وأفرادا، وجاء الجزء الأخير ليعرض مختلف متطلبات وحاجيات شرائح اجتماعية مختلفة من الساحة.

الفصل الرابع:

يعالج هذا الفصل جوانب مختلفة من العلاقات المتبادلة بين الساحة والمستعمل، حيث أشرنا في الجزء الأول إلى الإدراك والسلوك، ثم تناولنا مختلف العوامل المؤثرة في الفضاء، وعرضنا مجموعة من العناصر المكونة للساحة التي تساهم في تسهيل إدراكها والمتمثلة في المكونات الطبيعية كالنباتات،المياه...والمكونات الاصطناعية من التأثيث الحضري، يلي هذا عرض جوانب أخرى مختلفة كانفتاح وانغلاق الساحة، الحيوية والنشاط في مثل هذه الأماكن.

الفصل الخامس:

قـدم تحـت ثلاث عناوين جزئية، الأول قمنا فيه بعرض حالة الدراسة أي مدينة المسيلة، وهذا بسرد المعطيات التقنية والمناخية ثم التطور التاريخي للمدينة مبرزين عنصر الساحة، أما الجزء الثاني فقد خصص لمعاينة الساحات في المدينة، وذلك لاختيار عينات وفق معايير محددة سـلفا، وأخـيرا تناولنا الدراسة العمرانية والوظيفية لكل ساحة على حدى لنتمكن من استخراج خصوصـيات كل واحدة، وبذلك نتوصل إلى مجموعة من المعطيات والنتائج نحاول التأكد منها في الفصل الموالي والأخير.

الفصل السادس:

تـم فـيه دراسة الساحات من وجهتين مختلفتين، الأولى تخص المستعمل، والثانية تخص المهـندس أو المصـمم، واسـتعملنا في الحالة الأولى الاستمارة الإستبيانية التي تتناول نظرة المواطـن البسـيط إلى هذه الأماكن، وكذا استعماله له، بينما قمنا بإجراء المقابلة بالنسبة للحالة الثانـية، وهـذا للـتعرف على مفهوم الساحة عند مصمميها، أيضا تقييمه للساحات وكدا عملية إعدادها، محاولة منا للبحث عن الحقيقة التصورية والتخطيطية المسبقة لمثل هذا الفضاء.

خلاصة عامة:

ختمـنا كـل فصل بخلاصة منفردة، وختمنا البحث بخلاصة عامة جمعت أهم ما جاء في فصول المذكرة مقترحين بذلك مجموعة من التوصيات العامة.